

الآثار الجزائرية بين العسكريين والجامعيين

أ.د. شنييتي محمد البشير

أستاذ التعليم العالي معهد الآثار

جامعة الجزائر

1. الآثار في خدمة الاحتلال:

كانت الجزائر شبه مغلقة عن الرحالة السواح الأوروبيين قبل الاحتلال الفرنسي، بسبب حالة العداء والتوترات التي ميزت العلاقات بين الجزائر ومعظم الدول المسيحية، ومن ثم لم يتح سوى للقليل النادر من الأوروبيين زيارة بعض المناطق من التراب الجزائري، كـ بعض القناصل أو الأسرى الذين اعتنقوا الإسلام وبقوا في الجزائر. نذكر من أولئك القلائل القنصل الإنجليزي شاو الذي مكث في الجزائر اثنتي عشرة سنة، تنقل أثناءها عبر بعض المناطق سائحا، وألف في ذلك كتابا عام 1738م¹ ما لبث أن ترجم إلى لغات أوروبية منها الفرنسية.

وكانت توصيفات شاو للآثار الرومانية التي زارها مثار اهتمام كبير لدى المهتمين بالشأن الجزائري من الأوروبيين، ساسة كانوا أم باحثين عن التحف والكنوز الأثرية. فقام عدد من الرحالة الإنجليز والألمان والفرنسيين بجولات عبر مناطق عديدة في الجزائر وتونس تحوهم الرغبة في الاطلاع على المواقع الأثرية والمعالم الطبيعية مثل الواحات الصحراوية الجميلة، كان ذلك في بداية احتلال فرنسا للجزائر الذي استقطب كثيرا من هواة الآثار الأوروبيين الذين كانت أعينهم ترنو إلى اكتشاف أفريقيا الرومانية سابقا². ولم تكن فرنسا أقل حماسة في هذا المضمار، فلقد عبأت القيادة العسكرية المكلفة بالاحتلال ما يشبه حملة نابوليون بونابرت على مصر من علماء ومهندسين ومؤرخين، بقصد القيام بعمل مماثل لما قام به نابوليون في مصر. غير أن رجال المعرفة هذه المرة لم يكونوا أساسا من المدنيين بل كانوا من الضباط العسكريين خاصة، فالعلم والتقنيات هذه المرة ارتدت الزي العسكري كي تلتزم بأوامر القيادة العليا. وهذا المارشال سولت Soult يكاتب الأمين العام الدائم للأكاديمية الفرنسية عام 1833م حاثا إياه على ضرورة التوجه إلى الجزائر للعمل من أجل الاستفادة مما حققه الجيش الفرنسي هناك بقصد استحصال التجارب التي تحققت بين روما والأهالي، وأنه لا داعي للإلحاح على الأهمية التي يكتسبها هذا العمل بالنسبة للعلم وللإدارة³.

جسد الضباط العسكريون هذه المهمة في المنشورات الأولى التي اصدروها في الموضوع، من ذلك: رحلة في إيالة الجزائر un voyage dans la Régence d'Alger التي نشرها الكابيتان روزي Rozet عام 1832م وصف فيها آثار روسغونيا ومواقع أخرى، ثم الكابيتان دي كزيفري DeXivrey الذي أصدر

¹ - M-D. SHAW, Voyage dans la régence d'Alger.

² - من أشهرهم: هاينريش ف. مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو (سناد)، 3 أجزاء.

³ - P. A. Février, Approches du Maghreb romaine, (EDISUD), T, 1, p. 30.

كتابا عام 1838م، تحت عنوان "أمارات التاريخ" Traces de l'histoire أبرز فيه شواهد أثرية، وحاول توظيفها، وكان يجيد العربية وقد حاول نسخ كتابات عربية في كل من الجزائر وقسنطينة وتلمسان وبجاية . وهناك الكابيتان أزيما Azima الذي شارك في احتلال تيارت وقام بنسخ الكتابات اللاتينية أثناء الحملة باعتباره ضليعا في هذه اللغة، وقد نشر كثيرا من النقائش في "صحيفة العلماء Journal des savants" لعام 1837م⁴.

بعد احتلال قسنطينة يوم 13 أكتوبر 1837م بعشرين يوما فقط، أي بتاريخ 23 سبتمبر، شكل الجنرال دانريمو Danrémont لجنة عسكرية للقيام بمهمة تدوين كل ما يصادف الجيش في تنقلاته من معالم وآثار وأشياء فنية. وضمت تلك اللجنة إلى جانب الضباط بعضا من المدنيين: طبيب جراح، صيدلي، مترجم، ومن بينهم أدريان بربروجير A. Berbrugger الذي كان قد أوتي به إلى الجزائر عام 1834م، واتخذ الجنرال كلوزال Clauzel كاتبا خاصا له، ثم كلف بشؤون المكتبة والمحافضة على الآثار. وقد عبر بربروجير عن وفائه لمهمته وحماسه لعمله بتحريره تقريراً باسم اللجنة بتاريخ 30 نوفمبر من نفس السنة، يصف فيه طريقا رومانيا يربط بين هيبون وقالمة، وتوالت التقارير بعدها في موضوع الآثار والفنون القديمة والكتابات اللاتينية متخذة وجهتها نحو أكاديمية الفنون والنقوش بباريس.

وتبلورت المرامي العسكرية من وراء البحث عن المعالم والمواقع الأثرية الرومانية من خلال ما ورد في النصوص المؤسسة لتلك اللجنة، ومنها: "وصف الطرق العسكرية القديمة حيثما وجدت آثارها، ... متابعة تلك الطرق بكل تفاصيلها، ووضع الخرائط لها، وتحديد المسافات بين جميع المواقع .."⁵، إنه الإسهام العملي المطلوب بإلحاح آنذاك من البحث عن الآثار، وذلك تلبية لاحتياجات الحاضر التي تتجسد في متابعة الاحتلال وإحكام السيطرة على البلاد اقتداء بالرومان. واقتضت ضخامة المهمة وخصوصية تنفيذها توسيعها لتضم متخصصين في الطبوغرافيا وعلم الخرائط أمثال كاريت Carette الذي ضمّ إلى اللجنة عام 1839م، وقد أظهر ميلا بارزا لتوظيف معارفه لربط التاريخ بالجغرافيا، وألف كتابا ضمنه معلومات مفصلة حول الطرق والمعالم الأثرية اعتمادا على النصوص التاريخية والمعلومات الجغرافية القديمة وكذا المعارف العربية حول الطرق والمسالك في المغرب الأوسط حتى العهد العثماني، صدر ذلك الكتاب عام 1844م. ولما كانت القيادة العسكرية في اشد الحاجة للخرائط كي يتسنى لها تشخيص الواقع الجغرافي على الورق فترسم المسارات الآمنة لجيش الاحتلال وتحدد المواقع الحصينة على الأرض، احتاجت إلى مزيد من المختصين في الجغرافيا العملية الذين يجيدون قراءة الشواهد الأثرية ذات الصلة بالطرق، ويوظفونها في وضع خرائط حديثة. وبرز في هذا الموضوع ماك كارتى Mac Carthy الذي

⁴ - P. A. Février، المرجع السابق، ص. 31.

⁵ - النص التأسيسي للجمعية.

غطى نشاطه منطقة تلمسان والغرب الجزائري، وكذا الكولونيل كاربوشيا Carbuccia الذي وضع خريطة لمنطقة الأوراس بالتنسيق مع ضباط مساعدين.

ومن أبرز الشخصيات التي كتب لأسمائها شهرة في مجال تدوين المعالم التاريخية والمواقع الأثرية، ممن ضمتهم لجنة عام 1839م بعد توسيعها نذكر الرسام أدولف دولامار والمهندس المعماري أما بل رافوازي Am. Ravoisier الأول بوصفه ضابطا استدعاه قائده لما اشتهر به من مهارة في فنه كي يباشر مهمة الرسم والرفع الفني للمعالم الأثرية ذات القيمة الفنية، بينما استدعي الثاني لشهرته في مجال الرفع المعماري التي اكتسبها بمشاركته في أعمال علمية من هذا القبيل منذ عام 1829م. وبهذه الصفة تنقل دو لامار ورافوازي عبر مناطق شتى في الشرق الجزائري شمالا وجنوبا، تارة صحبة قادة عسكريين كبار مثل حملة دوك دو مال Duc D'Aumale على بسكرة عام 1844م التي تعرف أثناءها دولامار على ضريح المدراس ولامبيز وقام ببعض الرسومات لمشاهداته السريعة، ولكن معظم أعمالهما نفذها أثناء مهمات خاصة بذلك. وكانت مساهمة الرجلين بارزة في ما سمي بحملة الاستكشاف العلمي للجزائر، التي انطلقت خلال أربعينات القرن التاسع عشر.

ومن جهة أخرى لم تكن سلطة الاحتلال تعير اهتماما لحفظ المعالم الأثرية، أو حمايتها من التلف الذي كان يترصد بها جراء أعمال النهب واستخدام الحجارة المنحوتة في البناء من طرف المؤسسات العسكرية لإقامة المعسكرات والحصون في بعض المواقع الأثرية، أو بالقرب منها كما هو الشأن في قالمة وتبسة وغيرهما، بل إنهم أقاموا أول سجن كبير في موقع المعسكر الروماني لامبيز تازولت عام 1848م، وقد برروا ذلك بوفرة الحجارة الصالحة للبناء، وقد حذا المعمرون حذو المؤسسات العسكرية فسارعوا لبناء مزارعهم بالحجارة الأثرية متخذين من أطلال الموقع محاجر حقيقة يقتلعون منها ما يرونه مناسبا لبناء وتزيين مساكنهم وتحصينها، أما المستعمرات التي أنشأتها سلطة الاحتلال واختارت لها مواقع مدن قديمة، مثل سطيف وقالمة وتبسة، فقد أتت أعمال البناء فيها على ما كان باديا من آثار تلك المواقع، ولم يسلم من ذلك سوى ما كان خفيا في باطن الأرض.

أما الآثار الثمينة من تحف وتمائيل ومشخصات فنية فقد امتدت إليها الأيدي من كل جانب، باعتبارها غنيمة شأنها شأن الممتلكات الأخرى، فجمع منها الأفراد والجماعات ما أمكنهم منها ووصل منها الكثير إلى فرنسا بأمر من سلطات الاحتلال، من ذلك أن وزارة الحربية الفرنسية وجهت أمرا للمهندس الضابط دولامار كي يقوم بمهمة الرفع الدقيق للمنحوتات ويتخذ ما يلزم من الإجراءات الكفيلة بنقل التحف الفنية القديمة من منحوتات وغيرها التي يُعثر عليها هنا وهناك في القطاع القسنطيني قصد إرسالها إلى متحف اللوفر بباريس، وهو ما قام به دولامار فعليا. ومما يذكر أنه أرسل العديد من المنحوتات والعناصر الزخرفية الجميلة من سكيكدة وقسنطينة وعنابة، بما في ذلك فسيفساء أمفيتريت ونيبتون المكتشفة بقسنطينة عقب احتلالها، حيث اقتلعت من مكانها وأرسلت إلى فرنسا عام 1842م على يد دولامار. وقد حاول غيره، وهو "رونيي"، القيام بعمل مماثل بالنسبة لفسيفساء الفصول المكتشفة في

لامبيز لكنه لم يوفق. وفي سنة 1839م، قام الدوك دومال بزيارة إلى موقع جميلة وأمر بإعداد قوس النصر، وتوضيب قطعه لإرساله إلى فرنسا كي يعاد بناؤه هناك تمجيذا للجيش الفرنسي المنتصر في الجزائر. وكلف المهندس دولامار بتلك المهمة. لكن ذلك لم يتم بسبب عدم استعداد سلطة الاحتلال في مدينة الجزائر لتنفيذ مهمة من هذا النوع، فاكثفي بإعادة بناء القوس في مكانه. أما الكتابات الأثرية "النقوش اللاتينية" فقد جمع منها مبعوثو الأكاديمية الفرنسية وأكاديمية برلين عدة آلاف، تم إرسالها إلى باريس وبرلين، وكوّن منها الألمان محتوى المجلد الثامن من مدونة النقوش اللاتينية .

الجمعيات:

تتبع سلطة الاحتلال لدور الجمعيات المهمة بالتحف الأثرية والكنوز والفنون الكلاسيكية، كما كان عليه الحال في أوروبا، فعملت تلك السلطة على تأسيس الجمعيات والإشراف على أعمالها وتوجيهها عن طريق العضوية الفاعلة فيها، وهو ما نلمسه من خلال هوية الأعضاء المؤسسين لكل جمعية.

. جمعية الآثار والتاريخ والجغرافية لعمالة قسنطينة (الجمعية الأثرية لقسنطينة):

تأسست بعد خمسة عشر عاما من احتلال مدينة قسنطينة، أي بتاريخ 5 أكتوبر سنة 1852م بموجب قرار رسمي حدد مهامها في "الاستكشاف والتعرف على الأرض الأثرية وإقامة ورشات التنقيب وتدوين الآثار والعمل على حفظها..."⁶، وكان عدد الأعضاء المؤسسين 11 شخصا لا غير⁷، اجتمعوا في مقر حاكم قسنطينة، ومنهم:

- شوازي Choynet سكرتير عام العمالة.
- كرويلي Creuilly كولونيل في الهندسة العسكرية آنذاك.
- بروسار Brosselard وكان ضابطا ورئيسا للمكتب العربي في قسنطينة.
- لانوي Lanoy مهندس رئيس في أشغال الطرقات .
- شاربونو Cherbonneau أستاذ كرشي للغة العربية في الجزائر كلها.

بالإضافة إلى ضباط آخرين ومدنيين.

ووصف نشاط تلك الجمعية ومراميها السياسية رئيسها في الذكرى المئوية لتأسيسها، وهو مارسال تروسل M. Troussel بقوله: "... العمل على إزاحة الغطاء عن تيمقاد وتيبيليس . عنونة جميلة وخميسة وتيديس، ثم هييون، وبعث هذه المعالم من تحت ظلام السنين كي تتألق من جديد تحت الشمس الذهبية لإفريقيا الفرنسية"⁸.

وقال فيها الحاكم العام للجزائر في الذكرى المئوية لتأسيسها أيضا: "إن هذه الجمعية التي تشكلت من عناصر أكسبتها طابعها وأبرزت قيمتها، وهم الضباط والإداريون البارزون والجامعيون والكنسيون

⁶ - نفسه.

⁷ - محضر التنقيب.

⁸ - Société archéologique de Constantine, Livre du Centenaire (1852-1952), pp. 29-30.

والأطباء، وقد اجتمعوا كلهم حول هدف مشترك، وهو إعادة بعث الماضي المضيء لأفريقيا الرومانية وخدمة المعرفة الفرنسية...، إن الأجيال المتلاحقة على رأس هذه الجمعية بعد مائة سنة لم تتغير وظائفها وأهدافها ... فالسيد باتس Bats خلف الأب كريوزات Creuzat ونرى الكلونيل ايب Epp كان الكلونيل كرويلي. ويمثل بيرتي تقليد زميله شاربونو، وكان على رأس المؤسسين الكاتب العام للعمالة، وقد عينت عامل العمالة اليوم: مارسال تروسي ليكون على رأس الجمعية حاليا"⁹. لنا أن نسأل هل تغيرت الأهداف الإيديولوجية المرسومة للجمعيات الموصوفة بالعلمية بعد قرن من الزمن؟

ولم تقتصر هيمنة العسكريين عدديا على عضوية الجمعية، بل إن نشاطها الميدانيين كانوا ضباطا، وهو ما نلمسه من خلال توقيعات كتاب التقارير والمقالات والتحقيقات والحفريات أيضا التي نشرتها الجمعية في مجلتها المعروفة بـ R. de Constantine، حتى أن كثيرا من الأسماء اللامعة في أعداد المجلة أصحابها عسكريون، ومنهم الكابيتان مارسيلي Marcilly الذي اشتهر بآثار روسيكادا. سكيكدة والضابط في الهندسة العسكرية غرويلي الذي نشر النقوش اللاتينية المكتشفة في كل من قسنطينة وتيديس وغيرهما، كما أجرى الكوماندان فواي Foy دراسة ميدانية توصيفية لضريح المدراس عامي 1855م. 1856م، نشرت في مجلة الجمعية، وقد أجرى الكابيتان مول Moll دراسات وبحوث ميدانية في كل من لامبيز وتبسة شكلت سندا توثيقا لباحثين جامعيين لاحقين. ونلاحظ أن نشاط الضباط ميدانيا كان موزعا إقليميا حسب توزيعهم وظيفيا، فهذا الكابيتان بايان Payen يغطي منطقة برج بوعريريج من حيث العناية بالنقوش اللاتينية خاصة، أما الكابيتان ريبو Reboud فقد اعتنى أيضا بالكتابات الليبية ونشرها في كتاب بعنوان : "مدونة النقوش الليبية . البربرية". ويكفينا دليلا إلقاء نظرة على قائمة المراسلين الواردة في الدليل السنوي لعام 1856م . 1857م، فنجد أسماء سبعة ضباط برتب عالية ومتوسطة من حكام الأقاليم العسكرية بالشرق الجزائري، يليهم مسؤولون كبار على الأملاك وشؤون المعمرين، ومهندس في الطبوغرافيا وهو ماك كارت، ومحامي وطبيب واحد، والمجموع 13 مراسلا¹⁰.

وكما هو الشأن بالنسبة لجمعية قسنطينة احتل العسكريون مكان الصدارة بين أعضاء الجمعية التاريخية في الجزائر التي تأسست عام 1856م، كان ذلك بدافع الرغبة في الاقتداء بالسلف نابوليون بوناپرت، عندما غزا مصر عسكريا وأراد أن يغزوها علميا بانتقائه ضباطا لهذا الغرض، وقد أسلفنا ذكر ذلك أعلاه. يلي العسكريين في عضوية الجمعية التاريخية الموظفون الكبار والشخصيات المدنية المثقفة، ومنهم المترجمون أمثال دوسلان Deslan الذي ترجم ابن خلدون إلى الفرنسية بالإضافة إلى بربروجير الذي اختير أمينا للجمعية.

وحددت الجمعية مجال نشاطها في حقول المعرفة التاريخية بمختلف أنواعها تاركة أمر العناية بالآثار لجمعية قسنطينة وللهيئات المختصة بشؤون الآثار وما يتعلق بها، وهي موجودة في باريس، مثل مجلة

⁹ Ibid. -

¹⁰ - Annuaire de la Société archéologique de la province de Constantine 1856-1857, pp. V-VI.

الآثار R. Archéologique ومجلة التقارير التابعة لأكاديمية الفنون والنقوش CRAI ومجلة العتائقين بفرنسا Bull. des antiquaires وغيرها التي كانت تنشر تقارير مراسليها في الجزائر، وكان في طليعتهم الضباط والمشرفون على شؤون الأملاك العقارية والمستوطنين. وعبر بربروجير عن اهتمامات الجمعية وعن الطابع التاريخي لمجلتها التي اختير لها اسم "المجلة الإفريقية R. Africaine" تيمنا بأفريقيا الرومانية التي اعتقد الفرنسيون أنهم بصدد إحيائها.

ويحسن بنا هنا أن نقرأ بعضا مما قيل في الجمعية التاريخية ومجلتها الإفريقية على لسان شخصيات سياسية وعلمية في الذكرى المئوية 1856م . 1956م لتأسيسها أثناء الحفل الخطابي المنظم بتلك المناسبة، وقد نُشرت كلمات المتدخلين في العدد مائة الذي صدر عقب الاحتفال، فهذا ألفريد بوز ممثل أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية بباريس يقول منوها بتأسيس الجمعية وبالمكتبة قبلها: "تأسست جمعيتكم عام 1856م، وقبلها تأسست مكتبة الجزائر عام 1835م، هذه الأخيرة تذكرني بمكتبة الإسكندرية قديما التي أنت الحرائق المتواصلة على محتواها الثقافي الذي نحن ورثته. إنني أرى إشعاعا ينبعث على ليل دام 1200 سنة على هذه الضفة الإفريقية. إن هذه الثقافة التي حولتها المسيحية إلى حضارة جديدة، ها هي تقف على قدميها. على الضفة الإفريقية اليوم بتأسيس هذه المكتبة التي التحق بها المتحف والجمعية التاريخية...، إن هؤلاء المؤرخين الذين ساروا في أعقاب الجنود الفاتحين، يذكروننا بأن الشعب الذي يستعيد التقيب عن الماضي هو شعب يعرف كيف يبني...، خلال قرن من الزمن تفحصتم تاريخ هذه الأرض التي كانت مرومنة مثل بلاد الغال، ومثلها كانت مسيحية أيضا، وفتُح الإسلام لشمال أفريقيا مزق وحدة البحر الأبيض المتوسط التي أقامتها روما. إن أعمالكم يجب أن تساعد هذه الوحدة على استعادة وعيها بتنوعها التاريخي"¹¹.

لا نرى ضرورة للتعليق عن هذا النص لأنه يعبر بوضوح عما نسميه بـ "أدلجة التاريخ" من طرف المدرسة الاستعمارية. ونلاحظ أن الجمعية التاريخية ومجلتها الإفريقية ظلتا حكرا على العنصر البشري الفرنسي إلا ما قلّ وندر من الجزائريين الذين تسللوا إلى صفحات المجلة في العقود الأخيرة من عمرها. أمثال محمد بن شنب. هذا التفرد الفرنسي بالعمل التاريخي المتعلق بالجزائر خاصة لا يوجد ما يبرره سوى أحد أمرين أو كلاهما معا: ابتعاد المؤرخين الجزائريين عن المشاركة في صياغة تاريخ أراضيه فرنسا وسيلة لتبرير استعمارها للجزائر. انغلاق الجمعية التاريخية على نفسها بغلق الأبواب في وجه الأقلام الجزائرية كي لا تتخذ من المجلة منبرا لكتابة تاريخ لا يرغب فيه الفرنسيون. هذا الإقصاء الذي أدى إلى نتيجة مماثلة لتلك التي حصلت لجمعية الآثار بقسنطينة ومجلتها عام 1962م. حيث توقفت المجلة الإفريقية عن الصدور بمغادرة طاقمها الفرنسي تراب الجزائر المستقلة، ولم يكن من بين هيئات الجمعية التاريخية والمجلة الإفريقية، ولا ضمن الهيكل التنظيمي لهما جزائريون يمكنهم مواصلة العمل، فكانت نهاية الجمعية ومجلتها مع نهاية استعمار الجزائر.

¹¹ - 19. Revue Africaine, Centenaire de la société historique algérienne, 1856-1956, p. 19.

.أكاديمية هيبون:

نشأت جمعية علمية جهوية في عناية عام 1860م تحت عنوان "جمعية الأبحاث العلمية والإقليمية" التي دُعيت فيما بعد "أكاديمية هيبون". كان هدفها دراسة الآثار والتاريخ الطبيعي لمنطقة عناية. وأصدرت أول عدد لمجلتها "أكاديمية هيبون" عام 1865م. وكان العسكريون كالعادة وراء تلك الجمعية، فهذا الجنرال فيديرب Faidherbe قائد إقليم عناية، كان أكثر المشجعين للجمعية وأكثر المحررين في مجلتها، ثم الضابط الطبيب ريبود الذي انصب اهتمامه على النقوش الليبية المنتشرة بكثرة في إقليم عناية. وقد جمع عددا كبيرا منها من منطقة شفية الجبلية الواقعة جنوب الطارف، ونشرها في كتاب مؤلف من جزئين عام 1870م، أطلق عليه عنوان "المجموعة الكاملة للنقوش النوميديّة Collection complete des inscriptions Numidiques" وكانت تلك الكتابات قد جمعها عسكريون أثناء حملاتهم في المنطقة منذ عام 1853م، وساهم في العناية بها لوتورنو Letourneau والجنيرال فيديرب نفسه، وكذا الكابيتان بوسك Posc. وجسدت سلطة الاحتلال اهتمامها بالكشف عن معالم المدن الرومانية بزيارة وزير الأشغال العمومية لعين المكان عام 1884م لما زفّ إليه بالو نبأ إزالة الأنقاض عن كل من فوروم تيمقاد ولاميز، وكان الاحتفاء بذلك الحدث كبيرا.

ولم يكن اهتمام المؤسسة الدينية الفرنسية بقل عن اهتمام المؤسسة السياسية بالكشف عن المعالم الأثرية الرومانية والمسيحية، فقد ذكر بالو نفسه في كتاب أصدره عن تيمقاد عام 1897م، أنه لما أزال الأنقاض عن الكنيسة الكاتدرائية قدم أسقف قسنطينة وأقام فيها قداسا يوم الأحد الموافق لـ 24 أكتوبر 1894م. كما ورد أن الرهبان شاركوا بحماس كبير في إزالة الأنقاض بأيديهم إلى جانب الجنود من على أرضية البازيليكا المسيحية في تبسة عام 1892م وساهموا في ترميمها¹². وقد ساهم الرهبان كذلك في الكشف عن آثار مسيحية في تيبازة، ومنها الكاتدرائية المسيحية عام 1892م. ولدينا أخبار عديدة ومتنوعة حول الحماس الشديد الذي كان سائدا في أوساط رجال الدين المسيحي في الجزائر وفي تونس، التي شملتها يد الاحتلال في تلك الأثناء، وقد أجمت ذلك الحماس أعمال الكشف عن المدن الرومانية والمعالم المسيحية فيها، فضلا عن انتصارات الجيوش الفرنسية في شمال أفريقيا، وتوق فرنسا لإقامة مجد هنا يكون جديرا بمجد روما الغابر. ولدينا في عبارة توجه بها لا فيجري لأتباعه لما عُين كاردينالا في تونس ما يلخص ذلك الحماس الزائد: "شكرا للإله، على هذا النصر الذي أحرزته فرنسا، راجين أن يكون نصرا نهائيا للحضارة المسيحية في هذه البلاد المتوحشة"¹³.

¹² - A. Ballu, Les ruines de TIMGAD, Paris, 1897.

¹³ - P.A. Février, Op. Cit., p. 57.

2. الجامعيون في الميدان:

بدأ نشاط الجامعيين يبرز على الساحة الأثرية في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر. وكان لتأسيس المعهد العالي للآداب بالجزائر عام 1880م خطوة أولى لظهور باحثين أكاديميين في ميدان الآثار والدراسات التاريخية الحديثة، وكان لذلك المعهد برنامج تكوين جامعي يضاهي مستوى التكوين في الكليات الفرنسية المشابهة له في الاختصاص. وقد عُيّن إميل ماسكوري Masqueray مديرا للمعهد، فبادر بتأسيس مجلة التواصل الإفريقية Bull. de correspondances Africaines عام 1882م لنشر النقوش اللاتينية والليبية ودراسات أثرية جادة. لكن هذه المجلة تعثرت وتوقفت عن الصدور. وفي سنة 1890م حل بالمعهد أستاذ متخصص في الآثار الإغريقية الرومانية هو ستيفان غزيل (1864م . 1932م) الذي ما لبث أن رُقّي إلى رتبة أستاذ كرسي للعلوم الأثرية أواخر سنة 1894م اعترافا له بإسهامه العلمي البارز في مجال اختصاصه. وكان قد كُلف بإدارة متحف الجزائر منذ سنتين، وعمل على تنظيمه كي يستوعب مل كان يرد عليه من آثار متنوعة من مختلف أنحاء الجزائر. وتجسد شروع الجامعيين في العمل الأثري الميداني منذ سنة 1891م لما شرع غزيل في التنقيب عن آثار كنيسة القديسة صالسا الواقعة في الهضبة الشرقية لموقع تيبازا، بالموازاة مع التنقيبات التي كان يجريها آثريون أكاديميون في موقع دوقة بتونس، ومنهم ل. هومو L. Hommo وأ. ميرلان A. Merlan اللذين نفذوا مهمة التنقيب باسم المعهد الفرنسي بروما¹⁴.

وشهدت العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر ظهور باحثين في مجال الآثار والتاريخ، تميزوا بالتخصص في موضوعات معينة، وهو ما يقتضيه العمل العلمي. من ذلك أن روني كانيا R. Cagnat الذي كان شغوبا بالنقوش اللاتينية في كل من الجزائر وتونس وبمتابعة أشغال التنقيب في كل من تيمقاد ولامبيز، انصرف إلى الاهتمام بالميادين العسكرية، فكرس نشاطه لجمع مادة توثيقية لمؤلفه الضخم عن "الجيش الروماني والاحتلال العسكري لأفريقيا الشمالية" الذي صدر عام 1892م¹⁵، ثم شارل ديهل C. Diehl الذي تمحور اهتمامه حول الوجود البيزنطي في شمال أفريقيا متتبعا آثاره ما خلال القلاع والحصون، فوضع في ذلك كتابا كبيرا سماه "أفريقيا البيزنطية L'Afrique Byzantine" صدر عام 1896م¹⁶.

وهذا فيليكس دو باشتير F. de Pacheter الذي كان أستاذا للتاريخ بثنائية الجزائر تركّز اهتمامه في الفسيفساء فجمع ما أمكنه عنها من معلومات من خلال التقارير الأثرية، وأصدر بشأنها أول جرد لا يزال مرجعا للباحثين في موضوع الفسيفساء حتى أيامنا هذه. وسجل باحث آخر اسمه مقترنا بعمل نوعي في مجال الآثار بتونس، وقد كان أستاذا في الجزائر كذلك لما تم احتلال تونس، ثم انتقل إليها ليشغل مهمة مديرا للآثار هنالك، إنه بول غوكليز فأثار اهتمامه عنصر الماء والمنشآت المتعلقة به في الجنوب

¹⁴ - Ibid., p. 59.

¹⁵ - R. Cagnat, L'Armée romaine et l'occupation militaire de l'Afrique du nord, Paris, 1892.

¹⁶ - C. Diehl, l'Afrique Byzantine, (533-709), Paris, 1896.

التونسي قديما، فجمع حول الموضوع ملفات هامة من حلال الشواهد الأثرية، ونشر حول ذلك دراسة مفيدة.

وشهدت هذه الفترة نشاطا مركزا لدى جيش الاحتلال في كل من الجزائر وتونس في الميدان الطبوغرافي ورسم الخرائط العسكرية الدقيقة لما لها من أهمية في السيطرة على الوضع العسكري المتحرك جراء المقاومة. وقد استفاد الآثاريون من الخرائط العسكرية لتجديد المواقع الأثرية عليها، مثل ما وقع في تونس حيث دون الفريق الطبوغرافي معلومات مقتضبة على الآثار التي صادفها على الأرض أثناء قيامه بالمسح الطبوغرافي سنوات 1893م . 1913م، فكان ذلك شكلا أوليا من أشكال الأطالس الأثرية على خرائط بمقياس واحد على خمس مائة ألف. وهو عمل حاول كل من روني كانيا وسانت ميرلان القيام بتدقيقه وإثرائه أثريا فيما بعد. غير أن استفادة ستيفان غزال من تلك الخرائط العسكرية في الجزائر كانت أكثر دقة وشمولية وأوفر ثراء من نموذج تونس، إذ لم يكتف غزيل بما كان يدونه الطبوغرافيون العسكريون من إشارات إلى المواقع والمعالم الأثرية في تقاريرهم، وتحديدتها على الخرائط، بل قام بحشد جميع المعطيات المتعلقة بالموضوع من خلال ما قامت به الجمعيات الأثرية، والتاريخية، وما توفر لديه من معطيات المصادر القديمة والدراسات الحديثة بشأن تاريخ وآثار الجزائر في العصور القديمة، ثم قام بتوضيب كل ذلك في شكل أطلس أثري للجزائر صدر عام 1911م، توخى فيه الدقة والصرامة المنهجية والعرض المعرفي الموثق، وأخرجه في مجلدين، خصص الأول للخرائط، التي حدد عليها المواقع والمعالم الأثرية بوضع أرقام على أماكن وجودها على الخرائط، وخصص المجلد الثاني للوصف، متتبعا فيه ترقبها وضعه في مجلد الخرائط، وقد استهله بتحديد الإطار الجغرافي للأطلس الذي لم يتجاوز فيه الهضاب العليا الجزائرية.

غير أن ما نلاحظه عن هذا العمل المرجعي الهام هو تركيزه على الآثار الرومانية، وإهماله الآثار الأخرى، خاصة الإسلامية منها، الأمر الذي يقلل من شأن هذا العمل علميا، ويجعلنا نتساءل عن مفهوم آثار الجزائر عند غزيل ؟ ومع ذلك يعد الأطلس الأثري للجزائر جردا أثريا أساسيا للمناطق المشمولة بالتغطية الطبوغرافية آنذاك، ويوصفه هذا كان ولا يزال عملا مرجعيا لا غنى عنه للباحثين والعاملين في مجال حفظ وحماية التراث الأثري بالجزائر.

وكان غزيل قد أنجز عملا نوعيا في مجال المعرفة بالآثار القديمة في الجزائر أصدرها في مستهل القرن العشرين، هي "المعالم القديمة بالجزائر"، تناول فيها بالوصف والتحليل الفني والتقني جمع أصناف الهياكل المعمارية المعثور على آثارها وشواهدا في التراب الجزائري منذ الاحتلال الفرنسي إلى نهاية القرن التاسع عشر، وهو عمل موسوعي في موضوع المنشآت المعمارية المتنوعة من تلك التي تنسب للأهالي، أو اللوبيين، والتي تنتمي إلى الفينيقيين أو البونيقيين، وتلك التي تصنف رومانية. وبهذا العمل المعلمي سجل غزيل بصمة بارزة في تاريخ الدراسات الأثرية، استهل بها القرن العشرين الذي استغرق ثلثه الأول في تأليف كتابه الكبير عن "تاريخ شمال أفر يقيا القديم" في ثماني مجلدات، أتى فيها على كل

شاردة وواردة تتعلق بأخبار المغرب القديم، منذ أبكر العصور إلى استكمال روما احتلالها لهذه البلاد في نهاية العهد الجمهوري، وهو عمل علمي رصين تَوَجَّ به حياته العلمية الحافلة بالعطاء النوعي الذي ظل بعده رصيда متينا يقتبس منه الدارسون ولا يستغني عنه المتخصصون.

ومن الأعمال البارزة التي ترتبط باسم ستيفان غزِيل أيضا نتائج حفريات شارل ألبير جولي C. A. Joly في كل من مادور (مداوروش) وتبورسيكو النوميديّة (خميسة) وتيبيليس (عنونة) التي كتب فيها غزِيل دراسة تاريخية أثرية مستفيضة (Khamissa, Mdaourouch, Announa)، وأصدرها في ثلاث مجلدات فاخرة في الفترة ما بين 1913م . 1918م. بالإضافة إلى ما تقدم سجّل غزِيل بصمته بقوة في إعادة جمع وتبويب النقوش اللاتينية المكتشفة ضمن التراب الجزائري، تحت عنوان "النقوش اللاتينية بالجزائر Inscription Latines de l'Algérie"، وهو ما تم إنجاز أكبر جزء منه تحت إشرافه.

تجدر الإشارة هنا إلى أن حركة البحث العلمي في مجالي التاريخ والآثار قد برزت في جامعة الجزائر بفضل أساتذة متميزين، تجاوز نشاطهم مدرجات الجامعة ليشمل ميادين البحث والتقصي حيث ما وجدت، من ورشات التنقيب بالمواقع الأثرية، إلى معاينة المعالم التاريخية ودراستها عن كثب، إلى مخزونات المتاحف ومعرضاتها، فضلا عن تحلّل مسئولية الإشراف على المؤسسات ذات الصلة بالآثار، كمصلحة المعالم التاريخية والمتاحف، والإشراف على التنقيبات وأعمال الحفظ والصيانة، وما إلى ذلك مما كان يتصل باختصاصات الجامعيين، وهو ما جعل الجامعة تحنل الصدارة في قيادة البحث العلمي وتطوير أساليبه، وإنتاج المعرفة. ولدينا في الأستاذ غزِيل بجامعة الجزائر أوضح دليل على ما نقول. وخلاصة القول أنه فضلا عن الجنوح في المنهج، هنالك عدد من العيوب في تعامل الآثاريين الفرنسيين مع الآثار الجزائرية، منها:

. الانتقائية، وقد تجسدت في الحفريات بوضوح، من ذلك أنهم حفروا في المواقع الرومانية البارزة وأهملوا غيرها، وأن التنقيب كان انتقائيا في الموقع ذاته، حيث تمت إزالة الأنقاض عن المعالم الأساسية كالساحة العامة والشارعين الرئيسيين والمعابد والكنائس، وكان المسؤول عن الأشغال يضع تصميمًا معينًا لإزالة الأنقاض عن تلك المعالم كي تظهر للعيان دون اكتراث بغيرها، وكانت الآثار المتراكمة فوق تلك المعالم تُزال بصفة تلقائية دون مراعاة لمبدأ الطبقة (استراتيجرافيا). وقد وردت الإشارة إلى إزالة أو حرق ما كان يعلو الآثار الرومانية من مباني بما في ذلك جوامع وأضرحة إسلامية، وهو ما ورد في تقارير المهندس ألبير بالو مسؤول التنقيب في تيمقاد. وانصبت أشغال الصيانة والحفظ على المعالم الكبرى دون غيرها أيضا. وتم تنظيم الموقع الأثري تبعا لتصميم معماري يركز على المعطيات المكتشفة من مخطط المدينة، وهَيئت مسارات الزيارة للموقع والإرشادات المتعلقة بها تبعا لذلك التنظيم الموجه: دخول الزوار من نقطة معينة وخروجهم من مكان محدد بعد مشاهدة معالم معينة أثناء الزيارة، بقصد إحداث تأثيرات معينة لدى الزوار.

. إهمال الشواهد الأثرية العائدة إلى المراحل السابقة للعهد الروماني، وتوقف أعمال التنقيب في الموقع عند الأرضية الرومانية، باعتبار أن مستوى أرضية المدينة الرومانية كان يمثل غاية قصوى للحفرية، فكما تمت إزالة ما فوقها من آثار متأخرة عن العهد الروماني، لا يجوز التنقيب عما تحت المستوى الروماني، وكأنّ ذلك محرماً، ومن ثم لم يبرز أمام الزائر سوى الآثار الرومانية. ففي موقع تيبازا مثلاً لم يُكشف عن آثار الفترة السابقة للعهد الروماني، وهي تتعمق إلى القرن السادس قبل الميلاد، سوى ما بعد الاستقلال.

. شمل سلوك الانتقائية طريقة التعامل مع المكتشفات الأثرية الممثلة لثقافات وفترات تاريخية أخرى من غير الرومانية، فالزائر لموقع تيمقاد يلاحظ ذلك لأول وهلة، فالأنصاب التي تمثل معتقدات محلية، يراها مغروسة في الأرض على جوانب حديقة المتحف، وكأنه أريد لها أن تُعامل بإهانة مثلما كان أصحابها يعاملون من طرف أسياذ زمانهم، بينما تستقبل نفس الزائر مشاهد الفسيفساء الجميلة المثبتة على جدران وأرضيات المتحف بعناية فائقة، وكذا تماثيل الشخصيات البارزة في مجتمع تيمقاد، وهي في تمام الحفظ والصيانة، وكأن أصحابها أحياء يصهرون على حسن رعايتها.

. تنظيم المتاحف تم بنفس المنظور الانتقائي إلى الماضي، فقد أُريد لمعروضات المتاحف أن تكون انطباعات معينة لدى الزائر، وتدفع به إلى اتخاذ مواقف معينة من تاريخ المنطقة التي يتواجد فيها، ومن ثم يعمل على تحديد سلوكاته في الحاضر والمستقبل، أي جعله يبلور هويته بما يلائم والثقافة التاريخية التي تحتفظ بها الذاكرة التاريخية وتعرض المتاحف عينات منها. فالمتاحف والمعالم التاريخية من أكثر الوسائل الثقافية والتربوية تأثيراً في الزائر. ولعل عزوف الجزائريين عن زيارة المتاحف في العهد الاستعماري مرده إلى إحساسهم بأن ما يُعرض فيها لا يكون صلة تاريخية أو ثقافية بينهم وبين من تمثل شواهدهم معروضات تلك المتاحف.